مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد السابع ،العدد الرابع ،ماي ،2022 ص - ص:460-478

# تجارة القرطاجيين سبب ازدهار أم عامل ضعف ؟" 574–146 ق.م

# The Carthaginian trade cause of prosperity or a factor of weakness? 574-146 B.C

عمر بوصبيع(*)
جامعة الوادي bousbiaamor.2015@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/ 18 تاريخ القبول: 2022/04/ 19 تاريخ النشر: 2022/05/ 11

الملخص

يتعلق الأمر في هذه الورقة البحثية بذلك النشاط التجاري الذي عرِفَ به القرطاجيون الذين استقروا منذ نهاية القرن التاسع ق.م شمال شرقي بلاد المغرب القديم، والذين ورثت عاصمتهم السيادة على المستعمرات الفينيقية في غربي المتوسط عن المدينة الفينيقية الأم صور بداية القرن السادس وتحديدا سنة 574 ق.م، وقد حولت قرطاج هذه المستوطنات المنتشرة في غربي المتوسط إلى شبكة من المراكز التجارية استطاعت من خلالها تنشيط حركة مبادلات تجارية مربحة بينها وبين العديد من الشعوب المتوسطية وكذا شعوب الداخل الإفريقي.

تمكنت العاصمة البونية من خلال هذا النشاط التجاري الدؤوب، الذي انفردت به لعدة قرون متتالية والتي تحولت بفضله إلى إمبراطورية بحرية، من تحقيق عائدات معتبرة ساهمت في ثرائها، إلا أنها لم تعمل بالمقابل على تطوير ميكانيزمات اقتصادية تواكب عن طريقها تلك الحركية الاقتصادية المتحولة باستمرار خاصة بعد القرن السادس ق.م، وتمثل ذلك في التأخر في سك عملة بونية تساهم في تسهيل حركة التبادل التجاري، وعدم الاهتمام بتطوير الصناعات المحلية، وكذا استحداث مؤسسات مالية كالبنوك التي ظهرت في بلاد اليونان، وهو الأمر الذي جعل الاقتصاد القرطاجي يبدو كاقتصاد هش يمكن أن ينهار أمام التحديات السياسية والاقتصادية التي كانت تواجه جميع الدول المتوسطية الساعية وراء السيادة البحرية.

الكلمات الدالة تجارة – قرطاج – أرباح–ازدهار – ضعف

Abstrac:

This research paper dealt with famous commercial activity of the Carthaginians who settled since the beginning of the ninth century BC in the north-east of the ancient Maghreb, and whose capital inherited sovereignty over the Phoenician colonies in the western Mediterranean from the Phoenician mother city Tyre, in addition that Carthage transformed these scattered settlements In the western Mediterranean to a network of commercial centers through which it was able to activate profitable trade exchanges between it and many Mediterranean peoples as well as the peoples of the African interior.

The Punic capital, through this tireless commercial activity, which

alienated it for several centuries in succession when it turned due to it into a maritime empire, it was able to achieve significant returns that contributed to its wealth moreover, The sixth century BC was represented in the delay in minting a Punic currency which contributes for facilitating the movement of trade exchange, and one of the manifestations of this is the delay in minting a Punic currency that contributes to facilitating the movement of trade exchange, and the lack of focus on developing local industries, which is one of the important pillars in supporting any successful economy, as well as the delay in the development of financial institutions such as banks that appeared In the country of Greece, which made the Carthaginian economy seem unable to keep pace with the political and economic challenges that were facing all the Mediterranean countries seeking maritime sovereignty.

Keywords: Commerce- carthage- earnings- flourish- weakness

## 1. مقدمة:

أدرك الفينيقيون منذ قدومهم إلى غربي حوض البحر المتوسط وتأسيسهم للموانئ والمستوطنات الأولى هناك أهمية المنطقة عموما ومنطقة شمال إفريقيا أو بلاد المغرب القديم على وجه الخصوص، وبعد تأسيس الكيان القرطاجي شمال شرق بلاد المغرب القديم، عرف القرطاجيون كيفية استغلال هذه البلاد من خلال موقعها الذي كان يمثل حلقة وصل بين الحوضين الشرقي و الغربي للمتوسط، لذلك استطاعت قرطاج ربط شبكة من الخطوط التجارية البحرية بين إسبانيا وجنوب إيطاليا والجزر الغربية للبحر المتوسط وسواحل بلاد المغرب، وأخرى برية وصلت إلى بلدان الساحل الإفريقي مرورا بالصحراء الكبرى. وقد عمل القرطاجيون من خلال نشاطهم التجاري على تصدير سلع من مناطق معينة وبيعها في مناطق أخرى، مستفيدين من فارق القيمة بين البيع والشراء، ونخص بالذكر هنا تجارة المعادن التي عُرِفَ بها القرطاجيون ومن قبلهم الفينيقيون.

وبذلك حقق القرطاجيون أرباحا معتبرة ساهمت في ازدهار بلادهم وتقوية إمبراطوريتهم التي فرضوا من خلالها نوعا من النفوذ التجاري على أغلب مناطق الحوض الغربي للمتوسط ، غير أنهم ظلوا ورغم ممارستهم للتجارة لعدة قرون، يبحثون عن الربح السريع وتحقيق الأرباح

بالطرق السهلة، ولم يتمكنوا من بناء اقتصاد قوي لأنفسهم يعتمد على صناعات محلية مهمة ومعاملات مالية متطورة كالتي توصل إليها الإغريق والرومان من بعدهم، تسمح لهم بتأمين القوة العسكرية التي تحمي كيانهم وتضمن استمراريته، ومن هنا ارتأيت أن أطرح في هذه الورقة البحثية الإشكالية التالية : إلى أي مدى ساهم النشاط التجاري في ازدهار وزيادة قوة القرطاجيين؟ وهل كان هذا النشاط بالنسبة لهم سبب من أسباب الثراء والازدهار أم عامل من عوامل الضعف والانهيار؟

## 2.القرطاجيون أسياد البحر والتجارة في غربي المتوسط:

عُرِفَ القرطاجيون بالتجارة منذ ظهورهم في غرب البحر المتوسط، كما عرفت مدينتهم بهذا النشاط أكثر من أي مدينة أخرى، أما التاجر القرطاجي أو الرجل القرطاجي عموما فقد استطاع أن يرسم لنفسه صورة في أذهان الشعوب المتوسطية وخاصة اليونان والرومان على أنه ذلك التاجر[1] الذي يتميز بالحذق والدهاء والنشاط المتناهي، والذي لا يعرف الكلل ولا النصب، وهي الصفات التي أخذها القرطاجيون عن الفينيقيين الذين كانوا يعرفون كيف يفرضون أنفسهم على كل الشعوب، تلك الشعوب التي كانت لا تحبذ فيهم صفة المكر والغش وكثرة الطمع وحب المال، ومع ذلك لا تستطيع الاستغناء عن خدماتهم، لذلك تجد نفسها مضطرة للتعامل معهم[2]. وقد حافظ القرطاجيون على التقاليد الفينيقية في التجارة حتى بلغت شهرتهم في هذا النشاط الآفاق،[3] وإلى درجة أن بلين الكبير (Pline l'Ancien) نسب لهم اختراعها في قوله :" إن إقامة النظام الملكي كان من صنع المصريين وإقامة النظام الديمقراطي يعود للأثينيين بينما البونيون إنما اخترعوا التجارة"[4].

مع ظهور قرطاج سنة 814 ق.م، بدأ زمن جديد في تاريخ البحر المتوسط الغربي، فمدينة ديدون (Didon) تأسست في واقع الأمر على نقطة تم اختيارها بعناية، نقطة التقاء حوضين متوسطيين يُؤَمِّنُ الالتقاء بينهما مضيق تسهل مراقبته وهو الذي يفصل قرطاج عن صقلية التي تعتبر المنحدر الجنوبي لقارة أوربا. كانت هذه الوضعية ملائمة وبصفة خاصة للتجارة البحرية: تجارة العاصمة البونية التي كان توجهها في البداية وبشكل طبيعي نحو الغرب؛ ويبدو

أن هذه المستعمرة الفينيقية لم يكن تأسيسها من طرف الفينيقيين إلا لتكون محطةً للتنقل من الشرق نحو الغرب، ومرتكزًا جديدًا يمكن من خلاله اكتشاف بلدان غنية أخرى لم تكن معروفة سابقا[5].

وفي الحقيقة انعكس النشاط التجاري على المدينة البونيقية بالثراء الواسع من خلال أسواقها الرابحة التي كانت تدر عليها أرباحا طائلة،[6] ومع ذلك فإن تلك الثروة التي حصّلتها قرطاج لم تترك آثارا تتناسب مع ما عرف عنها من غنى وجاه[7]. وقد نجحت قرطاج في سياستها التجارية من خلال اتباع منهج صارم يتلخص في فتح الأسواق سواء بالقوة أو بالمعاهدات أو بإنشاء المستعمرات وكذلك في إبعاد المنافسين لها والمزاحمين لتجارتها من طريقها بجميع الوسائل.[8] وفي هذا الصدد نشير إلى أن عددا من الاتفاقيات الدبلوماسية عقدتها قرطاج مع روما بحسب ما ترويه المصادر القديمة، كانت أولها سنة 509 ق.م والتي نصت على منع الملاحة عن الرومان وحلفائهم فيما وراء الشناخ الجميل (أي إلى الجنوب من كاب فارينا أو رأس سيدي علي المكي إلى الشمال الشرقي من قرطاجة) ما لم تجبرها على ذلك العواصف أو قوة معادية.[9]

كما عقدت معاهدتين أخريين مع روما سنتي 348 و279 ق.م، وفي هذا الصدد يشير المؤرخ بوليب (Polybe)إلى أن حق الرومان في التجارة في غرب المتوسط كان في تلك الفترة لا يزال مضيقا عليه.[10] كما فرضت قرطاج على اليونانيين نفس الشروط تقريبا وهي التي مفادها منع التجارة عنهم في سواحل إفريقيا وسردينيا وليبيا، ولتضمن ذلك شيدت أبراجا تحرس تلك السواحل بأعداد كبيرة كانت تعرف بأبراج حنبعل، وهو ما يثبت في الحقيقة أن قرطاج كانت وحدها صاحبة السيادة على كل الحوض الغربي للمتوسط في القرن الخامس ق.م، إلى أن أنْتُزِعَتْ منها السيادة على سردينيا سنة 237 ق.م، وإسبانيا سنة 206 ق.م، وفي ذلك الزمن كان الرومان يطلقون على تلك البحار اسم البحور الصورية ( Mers tyriennes).[11]

وفي اطار الحديث عن علاقات قرطاج التجارية مع شعوب وكيانات شبه الجزيرة الإيطالية، تجدر الإشارة إلى أنه ومنذ بداية القرن الثامن ق.م أي في نفس الفترة التي نشأت فيها قرطاج تحدثت المصادر التاريخية عن محاولات للتيرانيين[12] (Les Tyrrhéniens) بحثا عن متطلبات معيشتهم، إلى التوجه نحو الغرب ليصطدموا بذلك الوجود البحري القرطاجي، ومن ثم كان ذلك بداية لإقامة روابط تجارية مع هؤلاء البحارة التجار تجنتا للإضرار بالمصالح البونية، وهم الذين كانوا أكثر حرفية في ركوب البحر من أولئك الأتروسك الناشئة مدنهم في تلك الفترة في شمال غرب إيطاليا، وقد استمرت العلاقات بين الطرفين تتسم بالسلمية والتعاون التجاري والعسكري، لكن ظهور وازدهار روما في جوار السهل الأتروري غَيَّرَ المعطيات شيئا فشيئا، فأتروريا فقدت وبشكل تدريجي استقلالها لتحافظ على علاقات أقل بكثير مما كانت عليه رغم ذلك[13].

لقد تحولت قرطاج خلال فترة ازدهار تجارتها بين القرنين الخامس والرابع ق.م وحتى خلال النصف الأول من القرن الثالث إلى أكبر سوق في العالم، فكانت كل أنواع البضائع القادمة من مختلف أنحاء الدنيا مكدسة بها، كما كان التجار يقصدونها من مختلف الأمصار .[14] وقد كانت موانئ قرطاج في زمن الحرب البونية الثالثة حسب وصف المؤرخ أبيانوس (Appien) بعدد اثنين (2) يتصل أحدهما بالآخر: الميناء العسكري الذي يمثل امتدادا للميناء التجاري، هذا الأخير كان محاطا بالأرصفة والأروقة التي تتوقف عندها السفن لحمايتها من الأمواج والتيارات البحرية، يحيط هذا الميناء بجزيرة صغيرة أين يضمن الحماية والمراقبة لمدخلها وكذلك للمنطقة البحرية المجاورة لها، وأمام سور المدينة يوجد مستودع (Entrepôt) كبير مخصص لتوضع السلع[15].

### 3.المبادلات التجارية للقرطاجيين مع الداخل الإفريقي:

تجدر الإشارة إلى أنه رغم الوجود القرطاجي في السواحل الغربية للمتوسط من خلال نقاط تواجدهم التي تمثلت في موانئ ومستوطنات صغيرة ومراكز تجارية، إلا أنه لا تظهر جليا علاقات قرطاجية تجارية قوية ومربحة مع الشعوب المحلية، وقد يفسر ذلك بتواضع مستوى

معيشة أولئك السكان وقلة البضائع التي يمكن أن يبادلوها بالمنتجات المصنعة التي يعرضها القرطاجيون، كما أن العائلات في تلك المناطق كانت تستطيع حياكة ثيابها بنفسها من الصوف، أما حرفيوهم فكانوا يصنعون الأدوات المستخدمة في الزراعة بأنفسهم ولم يكونوا بحاجة للسعي وراء الإنتاج الأجنبي،[16] إلا أنه في هذا الشأن لابد من استثناء أولئك المترفين من المحليين مثل رؤساء جنود المرتزقة من النوميديين[17] والمور[18] الذين عملوا زمنا طويلا في جيوش قرطاجة وأخذوا عنها حياة التحضر وتمسكوا بها واعتادوا عليها، والذين كانوا يقتنون الأدوات المترفة من مجوهرات وعطور وخزف دقيق ومصنوعات زجاجية، وأقمشة ثمينة، ومصنوعات حديثة.[19]

ويبدو أن القرطاجيين كانوا يهتمون بشكل متميز بمنطقة الصحراء إلى غاية نهر النيجر والسنيغال، وربما كانوا يعبرون إليها عن طريق لبدة (Leptis) وصبراطة (Sabrath) وهذه المنطقة تكاد تكون خالية منذ أقدم العصور من الصعوبات التضاريسية، وقد عمل القرطاجيون على إبعاد الإغريق عن هذه المناطق وهو ما يرجح وجود تجارة هامة لهم بها خاصة مع قبائل الجرامنت[20] (Garamantes) والنسامونتيون[21] (Nasamons) كما سبقت الإشارة إلى ذلك.[22]

أما عن تجارة القرطاجيين مع الداخل الإفريقي فكانت تتم عن طريق القوافل التي تجتاز الصحراء انطلاقا من السواحل الليبية إلى بلاد السودان، وكان نقل السلع خلال هذه المسافات الطويلة يتم على ظهور الجمال، وكان القرطاجيون عبر هذه التجارة يجلبون التمور والملح والعبيد والذهب والعاج وخشب الأبانوس[23]، وقد وصف هيرودوت (Hérodote) طريقا يبدأ من أعالي مصر إلى فزان (Fezzan) يمر عبر واحة أمون (Oasis d'Ammon)، وكانت القوافل التي تنطلق من قورينة (Cyrène) على ساحل السيرت يقودها النسامونس (Nasamons) واللوتوفاج[24] (Lotophages) إلى الداخل الافريقي نحو فزان وبليما (Blima) وقد يصلون أحيانا إلى وادي السودان الكبير. لقد كانت منطقة فزان والتي تقطنها قبائل الجرامنت (Garamantes)[25] غنية بما يكفي لكي تنشط بها تجارة مهمة خاصة فيما

تعلق بالعبيد حيث كان سكانها يتعاملون في هذا المجال مع المصريين وسكان قورينة (Cyrène) ولكن بصفة خاصة مع المستوطنات القرطاجية في السيرت الكبير مثل طرابلس (Tripolitaine)، ولبدة الكبرى (Leptis Magna) التي يبدو أنها كانت المستودع الرئيسي لهم [26].

**3.استراتيجية قرطاج التجارية في البحر والبر:**

ولكي تضمن قرطاج الاستئثار لنفسها بالأرباح من خلال هذه التجارة فقد احتكرت هذا النشاط داخل إمبراطوريتها سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار أو بعقد معاهدات تجارية مع منافسيها المحتملين مثل المدن الأترورية وروما.[27] وقد انتشرت في غربي المتوسط وخاصة على سواحل بلاد المغرب القديم وإسبانيا وبعض الجزر تلك المراسي والمراكز التجارية البونية وهي في الحقيقة كانت محطات في طريق مناطق غنية بالمعادن الثمينة، ولابد أن ندرك في هذا الصدد أن رخاء وثروة قرطاج إنما كان بالدرجة الأولى مرده إلى استيراد معادن الحديد والنحاس والرصاص والقصدير والذهب، وبفضل التجارة في هذه المواد واسعة الاستهلاك غدت الدولة البونية لفترات طويلة أغنى دولة في حوض المتوسط الغربي.[28] (أنظر الملحق)

وعلى الرغم من أن قرطاج كانت خلال قرنين ونصف من الزمان (814-574ق.م)، وهي الفترة التي ظهرت فيها وتأسست ككيان سياسي ببلاد المغرب القديم، تنفذ سياسة صور المدينة الأم خاصة في الجانب الاقتصادي، حيث كانت هذه المدينة المتزعمة للمدن الفينيقية، هي التي تسطر السياسة التجارية لقرطاج والتي كان الغرض منها المحافظة على سيادة الفينيقيين في غرب البحر المتوسط. وفي هذه الفترة كانت حكومة صور هي الموجهة لنشاط الأساطيل البحرية، وكذا نشاط المراكز التجارية التي أُسِّسَتْ لتكون قواعد ثابتة لهذه الأساطيل.[29]

وقد استطاعت صور ومن ورائها قرطاج أن تحقق نهضة كان أساسها تجارة المعادن، وكانت تلك التجارة مربحة وبشكل كبير لدرجة أن القرطاجيين الذين خلفوا الصوريين والصيداويين حرصوا على المحافظة على احتكار تجارة تلك الثروات المعدنية.[30] وفي هذا الاتجاه

قام القرطاجيون بمراقبة مضيق أعمدة هرقل ذو الأهمية الفائقة بالنسبة لتجارتهم في إسبانيا، وكذلك على سواحل الأطلنطي، ولكي يضبطوا هذه العملية أنشأوا بحسب سترابون قاعدة بحرية في خليج الجزيرة أين كانت تقع مدينة كارتيا (Cartéa) القديمة (أنظر الملحق).[31]

كانت أهداف هذه التجارة هي تصدير المعادن إلى الشرق، وهي المواد التي كانت دول الشرق في حاجة إليها، وكان على رأس هذه المعادن معدن الفضة الذي تحدث عنه ديودور الصقلي حين قال عن الفينيقيين أنهم اكتشفوا مناجم الفضة بإسبانيا، وهي مناجم كان يستغلها الأهالي المحليون من الإسبان، غير أنهم لم يكونوا يعرفون قيمتها الحقيقية، ويبدو أن الفينيقيين استغلوا جهل وسذاجة هؤلاء وحصلوا على كميات كبيرة من الفضة مقابل شيء قليل وتافه من البضائع، فغمروا بذلك أسواق الشرق بهذا المعدن النفيس الذي احتكره الصوريون ومن بعدهم القرطاجيون فحصلوا بذلك على ثروة طائلة من وراء تجارته.[32] (أنظر الملحق)

كان الملاحون القرطاجيون أول بحارة يجوبون البحر المتوسط ويصلون إلى بعض الشواطئ البعيدة ويعقدون معها صلات تجارية، والواقع أن هذه المناطق كانت تقع خارج نطاق الطرق البحرية المعروفة، كما أن سكانها المحليين كانوا معتادين على مبادلة منتجاتهم وهو ما يفسر تأخر سك العملة عند القرطاجيين.[33] وقد وصف الباحث خالد مليتي خط سير السفن التجارية البونية في غربي المتوسط بالخط الدائري ومن ثم وصف تجارتها بالتجارة الدائرية ( le commerce circulaire)حيث تأخذ السفن الفينيقو- بونيقية الطريق المار بصقلية سردينيا وجزر البليار، أين تتوقف في كل محطة من هذه المحطات لتفرغ حمولتها من السلع المتنوعة، ولينتهي بها المطاف في إسبانيا كوجهة نهائية وتكون بذلك جاهزة لتعود محملة بالمواد المنجمية الإسبانية، وفي طريق العودة تأخذ هذه المراكب نفسها الطريق المحاذية للسواحل الأفريقية باتجاه قرطاج ثم صقلية، حيث تجد البحرية نفسها في وضع مريح من خلال تقسيم المسار إلى مراحل.[34]

## 4.صادرات وواردات حركة التجارة البونية:

وككل الأنشطة التجارية كانت قرطاج تستورد سلعا وتصدر سلعا أخرى، أما تلك المستوردة من أملاكها ومن الجهات المجاورة لها ومن مستعمراتها، فهي المواد الأولية كالحلفاء من إسبانيا لصنع الحبال والمعادن المختلفة كالذهب والفضة من غرب إفريقيا والقصدير من إسبانيا وغالة والكرنويل[35] جنوب إنجلترا،[36] وهي جزيرة يابسة تقدم لها الأصواف والجلود المعتبرة[37]، كما كانت غابات شمال إفريقيا تزودها بالعاج أي بأنياب الأفيال وكذلك بالأخشاب لصنع السفن، أما قبائل الغرامنت (Gramantes) والناسمون (Nasamons) في الجنوب فكانوا يزودونها بالأحجار الكريمة وبيض النعام، وكانت تستورد التمور من الصحراء والحبوب من جزيرة سردينيا أما الرقيق فكانت تجلبه من جميع الأنحاء.[38]

أما عن صادرات القرطاجيين فيحدثنا الشاعر الأثيني حرميب من القرن السادس ق.م في قصائده عن الزرابي والطنافس والوسائد المطرزة التي كانت تأتيهم من قرطاج، أما روما فكانت تعجب الإعجاب الشديد بشمع قرطاج وعسلها وتينها ورمانها الذي كانوا يسمونه التفاح البونيقي، كما كانت قرطاج تصدر إلى روما العاج ومرمر شمتو المشهور والاقمشة الأرجوانية والملابس والنحاس المصنع والحيوانات الوحشية للألعاب وغير ذلك، كما كان الملح من المواد التجارية الهامة التي تصدرها قرطاج.[39]

وفيما يخص مبادلات التجارة البونية مع الأتروسكيين فيبدو أن التيرانيين الذين كانوا على كفاءة عالية في صنع الأواني الفخارية لم يكونوا يستوردون هذه السلعة من قرطاج التي كانت صناعتها لهذه المواد أقل جودة، أما التمائم والتعاويذ التي وجدت في القبور الأتروسكية،[40] فلم تكن فقط من مصدر بوني بل كان الأتروسكيون يجلبونها من مختلف المناطق في البحر المتوسط، وعلى العكس من ذلك فإن الواردات الأتروسكية إلى المدن البونية كانت كثيرة ومتنوعة، ففي قرطاج وكذلك في مستعمراتها في صقلية موتيا (Motyé) وليليبي (Lilybée)، وفي سردينيا تاروس (Tharros) ظهرت منذ 650 ق.م إلى 550 ق.م أواني خزفية أتروسكية من نوع البوشرو (Bucchero)، الأمفور (Amphore)، الأولبي

(Olpés)، الأونوكويس (Oenochoés) وغيرها، والتي كان يظهر عليها الطابع الأتروسكي واضحا جليا.[41] (أنظر الملحق)

وفي الحقيقة كانت حركية تجارة القرطاجيين تعتمد أساسا على تبادل وعبور السلع بين الأوربيين عن طريق تجارة البحر وبين الأفارقة عن طريق تجارة البحر والبر. فكانت تبيع للإغريق والإيطاليين العبيد السود، العاج، خشب الأبنوس (Le bois d'ébène)، المعادن النفيسة، والمنسوجات القرطاجية، كما كانوا يعاودون بيع بعض من هذه المشتريات مع ما يضاف لها من بضائع أخرى مصنعة عندهم مثل الأسلحة البرونزية والأواني الفخارية والمنسوجات إلى سكان غالة (Gaule) وإسبانيا مقابل المعادن والمواد الأولية وكذلك العبيد، لذلك ظلت إسبانيا بمناجمها الخاصة بمعدن الفضة وكذا بمنتجاتها الزراعية سوقا مربحة ومجالا مهما للاستثمار عند القرطاجيين.[42]

**5.أخر سك العملة وضعف آليات الاقتصاد القرطاجي رغم وفرة العائدات:**

لقد استفاد القرطاجيون أيما استفادة من موقع بلادهم في شمال إفريقيا والذي يتوسط الشرق والغرب وكذلك من حيث القرب من الوسط الإفريقي[43]، فمدينة عليسة كانت تتواجد على منتصف الطريق المؤدية من صور إلى مناجم استخراج المعادن بجنوب إيبيريا : القصدير (l'étain)، الفضة (l'argent)، والرصاص (le plomp)، وفي وضعية جغرافية استراتيجية في مدخل الحوض الغربي للمتوسط،[44] وقد ساهم في ازدهار تجارتهم اشتغال الطبقات المثقفة في المدن البونيقية وسراتها وأغنيائها بهذا النشاط المهم[45].

نعم لقد حصل القرطاجيون ومن قبلهم الفينيقيين على ثروات طائلة من مداخيل التجارة وخاصة من هامش الربح الكبير الذي كانوا يحصلون عليه من تجارة المعادن، لكن عوض استغلال هذا الربح في إنماء وتطوير صناعاتهم القومية عملوا على توزيعه على الأسواق الأجنبية طلبا لمزيد من الربح العاجل، مفضلين بذلك الغاية القريبة على الغاية البعيدة، إذ أنهم كانوا يعملون على مساعدة الأمم الأخرى في تطوير صناعاتهم، الأمر الذي كان له عواقب سلبية سواء على صور في الشرق أو قرطاج في الغرب[46].

وقد ظل القرطاجيون يعتمدون ولمدة طويلة نظام المقايضة أو المعاوضة والمبادلة في تجارتهم، وبمرور الزمن اعتمدوا في دفوعاتهم الوسائل المعتمدة في البلدان المتمدنة مثل السبائك المستطيلة والنقود الأجنبية[47]، أما عن أول عملة بونية فضربت في صقلية خلال القرن الخامس ق.م طبقا للمعايير الأتيكية، وكانت بنمط إغريقي صرف، أما دار السكة القرطاجية بحسب النظام الفينيقي فلم تظهر إلا منتصف القرن الرابع ق.م، ولكنها كانت لا تزال تحت تأثير الفن الإغريقي، وقد عُثِرَ في إسبانيا على عملة فضية تشبه هذه العملة ولكنها ذات علاقة بالنظام الفينيقي : وقد نسبها ل.مولر (L.Muler) إلى الملوك النوميد، ويعتقد قزال (S.Gsell) أنها ضربت في إسبانيا نفسها تحت إشراف البرقيين (Les Barcides)، وفي أواخر عمر الجمهورية ظهر نوع من الإهمال في صناعة العملة النقدية ليضاف الرصاص والنحاس إلى الفضة[48].

وإذا ما قمنا بمقارنة بسيطة بين الاقتصاد القرطاجي واقتصاد دولة تجارية منافسة لها في الحوض المتوسطي مثل اليونان، لوجدنا أنه –على سبيل المثال– من أجل ضبط ميكانيزمات هذا الاقتصاد قام اليونانيون باستخدام العملة منذ القرن السابع ق.م، ولو أن أغلب الظن أن ملك ليديا كروسوس (Crésus)(680-546 ق م )هو من استخدم صب السبائك الذهبية ذات الوزن الواحد وطبع الصور عليها، غير أنه من الثابت تاريخيا أن استعمال العملة أصبح أمرا عاديا في القرن السادس ق.م في بلاد اليونان.[49]

ورغم أن الفينيقيين استطاعوا من خلال تحالفهم المتين مع الفرس خلال الصراع الفارسي الإغريقي بداية القرن الخامس ق.م من فرض حصار على الشعوب الإغريقية التي صارت تعيش عزلة سياسية جراء تطويق تحالف من الدول لها شمل الأتروريين في إيطاليا والقرطاجيين والفرس، لتصبح في تلك الفترة قرطاج سيدة غرب المتوسط، ولتستمر في نقل المواد الأولية من أقصى الغرب إلى آسيا وبيعها بأثمان باهظة، ورغم تلك الظروف، لم يبق الشعب اليوناني مكتوف الأيدي بل كان يتحسن اقتصاديا مستخدما ذكاءه وما بقي لديه من مواد أولية من ذهب وفضة، بل واستخدم حتى أعداءه الفينيقيين والقرطاجيين انفسهم. وفي تلك

الأثناء اشتهرت مدينة كورينثة (Corinthe) بجودة المنتوجات الصناعية الخارجة من معاملها والتي كانت تروجها وتبيعها في كامل حوض المتوسط وحتى في المدن الفينيقية والبونيقية نفسها.[50]

في تلك الفترة المهمة من تاريخ العالم القديم عرفت بلاد الإغريق قفزة نوعية في مجال المعاملات المالية إذ ظهرت في أثينا وعدد من المدن اليونانية المؤسسات البنكية، ولو كان ذلك في شكل بدائي، ورغم أن تاريخ وعمر البنوك في أثينا لم يكن طويلا (بين القرنين الخامس و الثالث ق.م) إلا أن هذه التجربة تستحق في الواقع الدراسة من قبل الاقتصاديين والمؤرخين وحتى المشرعين، فالذين استحدثوا البنوك في أثينا كانوا مُقْرِضِينَ للأموال بحكم وظيفتهم، وبذلك كانوا يساعدون ويدعمون التجارة في مدينتهم، كان وجودهم ضروريا بالنسبة لمواطنيهم، للدولة ولهم أيضا، لقد تمكنوا من الحصول على مكانة مرموقة في المدينة ومن ثم كسبوا تعاطف الشعب ورجال الحكم[51].

هذا في الوقت الذي كان فيه الاقتصاد القرطاجي يضعف ويتضاءل وينقص شيئا فشيئا خلال القرن السادس ق.م وبداية القرن الخامس ق.م (574-480 ق م) وفي تلك الفترة كما سبق ذكره أنشأت الحكومة الإغريقية سكة ونقودا قومية أو عملة ساعدتها كثيرا على نمو وازدهار اقتصادها، وبظهور البنوك في هذه الفترة وما تبعها من عمليات إقراض واقتراض واعتمادات وتسهيلات،[52] وصلت البنوك الإغريقية خلال القرن الرابع ق.م إلى تنظيم محكم، إذ كانت أثينا في تلك الفترة تسك وتبيع عملتها الدراخم (Drachmes) والتي كانت مطلوبة في كل بلاد اليونان مقابل السلاح والأواني الفخارية والمصنوعات الفنية وغيرها من الأشياء المهمة عند الإغريق، ويبدو أن الرومان قد استنسخوا فيما بعد بنوكا على شاكلة البنوك الأثينية.[53]

حدث ذلك الوقت الذي أبان فيه القرطاجيون عن عجز كبير في استعمال أو فهم هذا الاكتشاف والابتكار الكبير في الميدان النقدي، ورغم المآزق الكبيرة التي وقعت فيها قرطاج إثر هزائمها العسكرية خاصة بعد هزيمتها في معركة هيميرا (Himère) سنة 480 ق م والتي

أجبرتها على اتباع سياسة التقشف والالتجاء إلى الزراعة وفلاحة الأرض من أجل تجنب المجاعة والفقر، وكذلك بعد هزائمها في الحربين البونيتين الأولى والثانية واللتان تسببتا في تراجع الحركة التجارية وازدهار قرطاج جراء عائدات استثماراتها الفلاحية، إلا أن الدولة القرطاجية لم تعتمد سياسة اقتصادية قوية تمكنها من بناء اقتصاد لا يتأثر بتلك الأزمات خاصة من جراء الخسائر العسكرية، لتجد الرومان في نهاية المطاف على أسوارها بعد أن تمكنوا من بناء قوة متوسطية قضوا بها على مدينتهم التي ظلت صامدة ومزدهرة لمدة سبعة قرون.[54]

**6.خاتمة**

وفي الأخير يمكننا القول أن القرطاجي ذاع صيته من خلال نشاطه التجاري الذي مارسه على نطاق واسع في غربي البحر المتوسط، وقد نجحت قرطاج في فرض سياستها التجارية على الدول المجاورة لها منذ القرون الأولى لتأسيسها، أي بين القرنين التاسع والخامس ق.م، وذلك بمختلف الوسائل كالمعاهدات الدبلوماسية أو المواجهات العسكرية، وقد انعكس منتوج هذا النشاط على دولة القرطاجيين بالرخاء والثراء، تلك الثروات التي جعلت من عاصمتها سوقا رائجة تتكدس فيها البضائع والسلع من مختلف أنحاء العالم القديم، إلا أن التجارة الأبرز والأكثر ربحا بالنسبة لهم تمثلت في بيع المواد المعدنية الخام التي كانت تجلبها من إسبانيا وغرب إفريقيا وبلاد غالة وجزيرة الكورنويل، والتي حققت من ورائها أرباحا طائلة بفعل فارق القيمة الذي كانت تحصله بعد تسويق تلك المعادن وبيعها للأمم الشرقية.

غير أنه ورغم ازدهار أوضاع القرطاجيين ونجاحهم الباهر في هذا النشاط، يمكننا أن نسجل في هذا الاطار أن أساليبهم على مستوى المبادلات التجارية ظلت بسيطة وبدائية، وقد سعت من خلالها العاصمة البونية فقط لتحقيق الربح السريع، ولا أدل على ذلك من تأخر القرطاجيين في سك عملة لهم مقارنة بالأمم الأخرى، هذا بالإضافة إلى غفلتهم عن تأسيس واعتماد مؤسسات مالية كالبنوك، وكذا العمل بأنظمة مالية حديثة، كنظام الإقراض والاقتراض، التي تتماشى مع ما كان معتمدا عند غيرهم من الشعوب المنافسة لهم كالإغريق.

كما أن قرطاج وفي خضم بحثها عن الأرباح لم تُولِ اهتماما لتطوير صناعاتها المحلية والاعتماد عليها في حركية اقتصادها، تلك الصناعات التي تعتبر صمام الأمان للنظام الاقتصادي لأي مجتمع سواء في العصور القديمة أو حتى الحديثة والمعاصرة، لذلك ظل الاقتصاد القرطاجي اقتصادا هشا يمكن أن ينهار في أي ظرف عصيب تمر به العاصمة البونية، وهو ما تحقق فعلا في عدة فترات بعد القرن الخامس ق.م أين احتدمت المنافسة التجارية بين القرطاجيين ومنافسيهم في الحوض الغربي للمتوسط والتي سرعان ما تحولت إلى صدامات عنيفة.

**ملحق**: خريطة توضح الطرق التجارية البحرية من وإلى قرطاج[55]

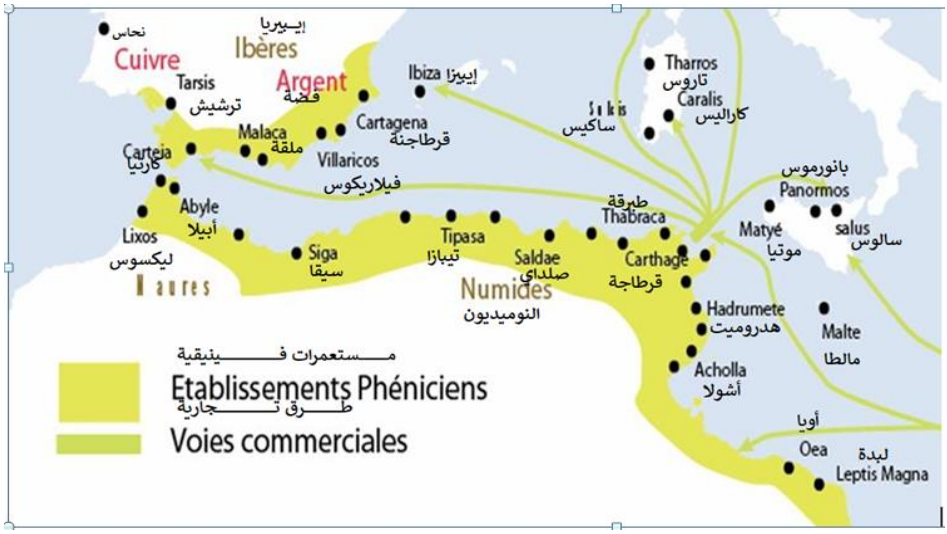


## 7.الهوامش:

[1] - مُحَمَّد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص 225.

[2] – أحمد صفر مدنية المغرب العربي في التاريخ، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959 ، ص138.

[3] – فرانسوا دوكريه، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1994 ، ص 89.

[4] - Pline l'Ancien, Hisoire naturelle, Texte établi et traduit par Robert Schilling, Les Belles Lettres, Paris, 1977, Livre VII, 57,8-9.

[5]- Et. Colozier, Les Etusques et Carthage, Mélanges d'archéologie et d'histoire, tome 65, 1953, https://www.persee.fr/doc/mefr_0223-4874_1953_num_65_1_7382, p 63

[6] – مُحَمَّد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية، د.م.ن ، 2010، ص132.

[7] – مُحَمَّد بيومي مهران، المرجع سابق، ص225.

[8] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 138.

[9] – فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 91.

10 - Polybe, Histoire générale, texte traduit par M. Felix Bouchot, Tome premier, Charpentier Libraire-Editeur, 1847 , III, 1, 24.

[11] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 138.

12 التيرانيون هم الأتروسك وكان الرومان يدعون جيرانهم إلى الشمال الغربي منهم الأتروسكيون (Etrusci) أو التوسكي (Tusci) وهم الذين كان الإغريق يدعونهم الترسنوي (Tyrsenoi) أو التورنوي (Tyrrhenoi)، أما الإقليم الذي كان هؤلاء القوم يسكنونه قديما فيدعى اليوم تسكانيا، وطراز أعمدتهم وكذلك معابدهم يدعيان الطراز التوسكاني، أما البحر الذي يفصل الشاطئ الغربي لشبه جزيرة إيطاليا عن جزيرتي كورسيكا وسردينيا فيدعى البحر التيراني. للمزيد أنظر: إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، ج1، منذ أقدم العصور حتى عام 133 ق.م ، ط2، ددن، دب ن،1978، ص ص 45-46.

[13]- Et. Colozier, loc.cit.

[14] - Stéphane Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Tome IV, La civilisation carthaginoise, Librairie Hachette, Paris, 1920, p 113.

[15]- Besnier Maurice, l'Etat carthaginois, Journal des savants, premier article, Juillet-Août, 1918, https://www.persee.fr/doc/jds_00218103_1918_num_16_4_4907, p186.

[16] – فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص ص 99-100.

17 النوميديون: أطلقت المصادر اللاتينية "Numidae" على سكان شمال إفريقيا إبان حروبهم مع قرطاج التي عرفت بالحروب البونية وجرت أحداثها إلى غاية القرن الثاني قبل الميلاد وقد اختلف المؤرخون في تحديد المنطقة التي تسمى بنوميديا، فعند ديودور الصقلي النوميديون هم قوم عاشوا في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد في جزء كبير من ليبيا يمتد حتى الصحراء، أما بوليب فقد أطلق تسمية نوميدون على سكان شمال إفريقيا عامة في المنطقة الممتدة من ليبيا حتى المغرب الأقصى. ينظر: – مُحَمَّد الصغير غانم: نصوص بونية– ليبية مختارة من تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، الجزائر،2012، ص 89.

18 المور: كان أول من استعمل مصطلح "موريزيا" هم الجغرافيون الإغريق القدامى، ويعنى ذلك بالنسبة لهم الرقعة الجغرافية الأكثر بعدا بالنسبة لبلادهم والتي تقع أقصى الغرب، غير أن هذه اللفظة تحرفت وصارت موري "Mouri" فشاعت وانتشرت عند الرومان، حيث أنها بقيت ذات دلالة جغرافية تطلق على ليبيا الغربية أي القسم الغربي من بلاد المغرب القديم ينظر: – مُحَمَّد الصغير غانم، المرجع السابق، ص59.

[19] – نفسه، ص 100.

[20] الجرامنت أو الغرمنت: سكان جنوب ليبيا القدامى عاصمتهم غرمة "ينطقها البعض جرمة" وحسب الأبحاث الأثرية ينتمي الغرمنت إلى اربع مجموعات سلالية: إثنان منها بيضاء وواحدة زنجية والرابعة مزيج من هذه السلالات. ينظر:- عبد المنعم المحجوب، معجم تانيت (معجم في الحضارة الليبية – الفينيقية في شمال إفريقيا وحوض المتوسط)، دار الكتاب العمالية، بيروت،1971، ص158.

21 النسامنتيون: هم قبائل كانت متوضعة في واحات أواجيلا (Awajila) وسيوة (Siwa) في صحراء ليبيا، كانوا يعيشون على تربية الماشية وتجارة الملح، كما كان رجالهم يشتغلون كمرتزقة في الحروب، كانوا يستعملون العربات في حروبهم مثل الجرامنت، وقد عرفوا بكثرة مهاجمتهم للمسعمرات الإغريقية في قورينة (Cyrénaique)

http://www.encyclopedie.fr/definition/Nasamons 22/02/2022 à 17:25

[22] – مُحَّد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 234.

[23] خشب الأبنوس هو خشب صلب أسود وكثيف جداً، من اغلى وأجود أنواع الخشب، يتميز بكثافته العالية ولونه الأسود، يقطع من شجرة الأبنوس وهي شجرة تنبت في المناطق الاستوائية، يستخدم في صنع الأدوات المنزلية الصغيرة (أدوات المائدة)، وفي صناعة الكمان، وقد أعطي خشب الأبنوس اسمه لنشاط صناعة الأثاث الفاخر(ébénisterie).-https://www.linternaute.fr/expression/langue /francaise/15379/bois-d-ebene

24 جزيرة اللوتوفاج هي المعروفة منذ القدم بجزيرة جربة (Djerba) الواقعة جنوب تونس الحالية، أما شعب اللوتوفاج كما هو اسمهم فهم أكلة ثمار اللوتوس (Lotos) وهي نبتة مفضلة عندهم في الأكل تجعل من يأكلها ينسى من هو ومن أين قدم، أي تفقد من يأكلها الذاكرة وقد ذكرت في الأوديسة لهوميروس.

M.C.Howatson, Dictionnaire de l'Antiquité, Collection Bouquins, Robert Laffont, Paris, p580.

[25] – تحدث هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما الجرامنتيون والنسامونتيون في أقاليم جنوب السيرت وأن المسافة بين الساحل وبين ومنطقة الجرامنتيين المركز السكاني لجرمة تستغرق ثلاثين يوما، وأن الرومان قد حصلوا عن طريق الجرامنتيين على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية . أنظر مُحَّد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 234.

[26] – le 31/10/2019 à 11:34. http://www.cosmovisions.com/Commerce-Pheniciens.htm

[27] – محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص233.

[28] – فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 100.

[29] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص140.

[30] – فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 101.

[31] - Strabon ,Géographie, texte traduit par Amédée Tardieu, Librairie de I. Hachette et Cie, Paris, 1867, III, 7,1.

[32] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 141.

[33] – فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص102.

[34]– Khaled Melliti, Histoire d'une métropole méditerranéenne, Perrin, Paris, 2016, p 35.

[35] أحمد صفر، المرجع السابق، ص 139.

[36] محمد الصغير غانم ، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ، 1982، ص113.

[37] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 139.

[38] – Stéphane Gsell, op.cit, pp 136-137.

[39] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 139.

[40]– Stéphane Gsell, op.cit, p 148.

41- Et. Colozier, op.cit, p 65.

42 - le 31/10/2019 à 11:34. http://www.cosmovisions.com/Commerce-Pheniciens.htm

[43] – محمد علي دبوز ، المرجع السابق، ص 133.

[44]– Khaled Melliti, loc.cit.

[45] – محمد علي دبوز ، المرجع السابق، ص 133.

[46] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص141.

[47] – نفسه، ص 138.

48- Besnier Maurice, Deuxième et dernier article, Septembre-Octobre, op.cit, p 247.

[49] محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 235.

[50] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 143.

51- Gustave Cruchon, Les Banques dans l'antiquité: Etude historique, économique et juridique, A.Durand et Pedone-Lauriel Editeur, Paris, 1879, pp 20-21.

[52] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 143.

[53]– Gustave Cruchon, op.cit, p 22.

[54] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص 143، 145–148.

[55] http://www.algeriepyrenees.com/article-algerie-les-pheniciens-ces-ancetres-meconnus-68405602.html (carte adaptée)